الازدواجية في الفكر العربي الحديث وجذورها الاجتماعية (1)

يمكن القول بصفة عامة ان مدار الفكر العربى الحديث ، منذ بداية النهضة العربية منذ منتصف القرن الماضى الى ايامنا هذه ، كان — وما يزال — « التوفيق » بين القديم والحديث : بين التراث العربى الاسلامى والثقافة الغربيـــة المعاصرة ، فى مختلف الميادين : الفكريـــة والادبية والفلسفية والسياسية والاجتماعية ...

لقد وجد العرب انفسهم ، عند بدء يقظتهم فى النصف الثانى من القرن الماضى ، بل قبله ببضعة عقود من السنين ، امام ثلاثة انواع من الواقع : واقع الحضارة الغربية التى داهمتهم فى عقر ديارهم وهم شبه غفاة ، حضارة ميزتها العقلانية فى التفكير والتنظيم والعمل ... وواقع جامد ، واقعهم هم ، يكبل انطلاقتهم ويكرس الاستسلام والتواكل ... ثم « واقع » تراثى ، عربى اسلامى ، يذكرهم بذلك الماضى المجيد الذى عاشه أجدادهم فى القرون الوسطى والذى يغريهم بالرجوع اليه والتماس الحلول منه .

بفعل هذه المعطيات الثلاث : التحدى الحضارى الغربى ، وفراغ الحاضر وانحطاطه وجموده ، واغراء الماضى وتمجيده ، وجد الوعى العربى

(1) نص التدخل الذى ساهمنا به فى ندوة عقدت بالبيضاء بعنوان « الازدواجية فى الفكر العربى الحديث » ، فبراير 1972 .

نفسه يعيش ، منذ بدء يقظته الحديثه . توترا او ازدواجية ما زالت آثاره تهزه ، فتشوه رؤاه ، وتعرقل انطلاقته .

كيف نوفق بين تراثنا المجيد الزاهر وبين ثقافة العصر وعلومه ؟ ذلك هو السؤال الكبير الذى طرحه رواد الفكر العربى ، على اختلاف اتجاهاتهم وتباين مشاغلهم .

وكما نعرف جميعا ، فلقد كان هناك من تخطى الواقع وتجاهل التطور ، مستنجدا فى رؤاه الفكرية بصورة مثالية للماضى ، فنادى بعدم الحاجة الى الغرب وثقافته ، لان التراث العربى الاسلامى يكفى ذاته بذاته ، ولان فى هذا التراث من المقومات الذاتية الاصيلة ما يكفل للعرب والمسلمين نهضة حقيقية اذا هم عرفوا كيف يعودون الى الماضى وثقافته ويغرفون من معين أصالته . وكان هناك ، بالمقابل ، من قام لينادى بضرورة الاخذ من الغرب واقتفاء خطاه العقلانية العلمانية فى الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد ، معتبرا التراث مجرد ركام تاريخى تجاوزه التطور ، يعرقل الانطلاقة المنشودة ، ويكبل مسيرة التحرر والحرية . وبين هذين الاتجاهين المتعارضين ، قام اتجاه آخر ، سرعان ما اصبح اكثر انتشارا ، يدعو الى « الامساك بالعصى من الوسط » ، الى « التوفيق » بين القديم والحديث ، بين أصالة التراث وثقافة العصر .

لقد تقاسمت هذه الاتجاهات الثلاثة رواد الفكر العربى فى عصر النهضة ، ولا زالت تتقاسم الكتاب والمفكرين العرب الى اليوم . بل ان هذه الاتجاهات الثلاثة تقاسمت وتتقاسم وعى الفرد العربى ، سواء كان من دعاة العودة الى التراث أو من الهاربين نحو الغرب ، أو من اولئك الذين خيل لهم أن الحل يكمن فى التوفيق بين هذا وذاك .

لم يكن فى امكان دعاة الاتجاه الاول ان يدفنوا رؤوسهم فى التراب طويلا . فلقد وجدوا انفسهم أمام حضارة غربية تفرض نفسها عليهم فى كل مجال ، فى المأكل والملبس والحياة الاجتماعية الاقتصادية والفكرية ، وأمام حقائق علمية لا يمكن نكرانها أو رفضها لان تطبيقاتها العملية هى أساس الحضارة الوافدة التى تغزوهم وتتحداهم . ولذلك أخذوا يقبلون الكثير منها مبررين ذلك بأن التراث ، أو جانبا معينا منه ، قد سبق الى التبشير بها ، أو الى اكتشافها ، أو أنه يحتويها بشكل ضمنى . وهكذا

اصبحوا يعيشون توترا وازدواجية مقلقة تهد كيانهم وتنشر الفوضى فى تفكيرهم ورؤاهم . لقد عبر جاك بيرك عن هذه الظاهرة تعبيرا مأساويا فكتب يقول : « اصبحت المشكلة التى تواجه الرجل التقليدى ، أن عليه ان ينكر ذاته فى كثير من النواحي ، اذا أراد ان يكيف نفسه ليتلاءم مع «الآخرين» ، ويوفق بين حياته وحياة العالم الذى اعادت الآلة خلقه من جديد ، مع ما ألحقت به من خسائر . فهو لا يستطيع أن يكيف وجوده الا اذا تخلى عن الكثير مما يؤمن به ، ومن هنا يبرز قلقه ، وهو لا يستطيع أن يحقق سيادته الذاتية الا اذا استعاد احترام الآخرين له ، وهذا يتطلب تنكره لكثير من الجوهريات التى تؤلف ذاته » (2) .

أما دعاة الاتجاه الثانى فلم يكن بامكانهم أن يستمروا فى الهروب الى الامام طويلا ، فلقد وجدوا انفسهم ، من أول وهلة ، يعيشون تناقضا وحدانيا يتجلى فى اضطرارهم الى الوقوف بجانب مواطنيهم لمقاومة الغرب الذى يعجبون به ويدعون الى الاخذ منه ، بل الى اقتفاء خطاه ، لانه هو نفسه الغرب الاستعمارى الذى أصبح يحتل أوطانهم ويسرق خيرات بلدانهم ، ويشدد الخناق عليهم حتى فيما يرومون أخذه منه .

أما الاتجاه الثالث الذى كان يعتقد انه « يعى » هذه « الازدواجية المفروضة » والذى لجأ الى التوفيق والتلفيق ، فانه عبثا حاول التمييز بين التراث السلبى والتراث الايجابى ، بين الغرب العقلانى الليبرالى والغرب الاستعمارى الامبريالى ، لقد كان مشغولا بالبحث عن جسور بين الماضى المجيد ، ماضى العرب ، وبين المستقبل المأمول الذى تستنسخ صوره من الغرب الاستعمارى نفسه . وهكذا لم ينجح أصحاب هذا الاتجاه الا فى صياغة انواع من التراكيب والاخلاط ، فكانت النتيجة ان ضخموا الازدواجية وابرزوها ، فوقعوا فى تناقضات مكشوفة حادة .

وهذه نماذج وامثلـــة .

عندما نقل الدكتور شبلى شميل لاول مرة الى اللغة العربية نظرية التطور الداروينية فى كتابـــه « فلسفة النشوء والارتقاء » قامت ضده عاصفة هوجاء من الاعتراض والنقد ، — وكان الدكتور شميل على راس الاتجاه الثانى — بدعوى أن نظرية التطور تتعارض مع الدين وتنسف

(2) جاك بيرك : العرب : تاريخ ومستقبل . تعريب خيرى حماد . الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر . القاهرة 1971 .

التراث والاصالة . وكان جمال الدين الافغانى قد رد فى رسالة له بشهوره على « الدهريين » وانصار نظرية داروين من نفس الموقع ، ومن نفس المنظور ، مما افسح المجال واسعا لاستفكار النظرية وتجريم دعاتها .

وفى خضم هذا الصراع بين انصار النظرية والداعين لها باسم المعاصرة ، وبين خصومها المشهرين بها باسم الدين والتراث ، قام كاتب مصرى هو اسماعيل مظهر محاولا التوفيق فى كتابه « ملقى السبيل » بين الفريقين ، منطلقا — او هادفا الى بيان أن نظرية التطور الداروينية لا تتعارض فى صميمها مع العقيدة الدينية . ذلك لان مذهب النشوء والارتقاء — فى نظره — « بعيد عن البحث فى أصل الحياة ، ولا شأن له بالبحث فى التولد الذاتي ولا فى القول ان الحياة قوة مادية او غير مادية ... ان المذهب — كما يقول — مقصور على البحث فى نشوء بعض المضويات من بعض ، بعيدا عن البحث فى الاصل الذى تستمد منه حياتها » . ثم يضيف قائلا : « ومن هنا تزاح اكبر عقبة تقف فى سبيل القول بأن المذهب بعيد عن مخاصمة الشرائع المنزلة » . وهكذا نرى انه عندما يتعلق الامر بنظرية علمية تفرض نفسها على الفكر العربي ، الذى من هذا النوع ، تقبل تلك النظرية على أنها فى « العمق » لا تتعارض مع التراث ، ولكن مع تجاهل مقدماتها ونتائجها الفلسفية . ان النظرية العلمية تقبل عادة ، ولكن مقدماتها ونتائجها ترفض أو يغض الطرف عنها ، ولذلك يبقى الموقف التوفيقى مهزوزا ، يرتطم فى اشكالات عدة ، يضطر معها ، فى نهاية الامر ، الى التنازل من جديد ، أو الى الانكماش على نفسه ليظل سجين ازدواجيته .

وكمثال آخر نشير الى موقف الاستاذ عباس محمود العقاد من العقل . لقد خاض العقاد كما نعرف معركة كلامية واسعة ضد خصوم الاسلام ، أو ضد من اعتبرهم كذلك . ناالف كتبا عدة يدافع فيها عن العقلانية فى الاسلام ، منطلقا من أن الاسلام دين العقل وان « التفكير فريضة اسلامية » . ومع ذلك كله ، ومع كثرة كتبه ومقالاته فى الموضوع ، نجده يتبنى موقفا مخالفا فى معركة كلامية مع الزهاوى ، حيث حاول العقاد أن يقيم الدليل بكل ما يملك من قدرة فكرية وادبية ، على ان الخيال والعاطفة لازمان للانسان ملازمة العقل له ، مؤكدا على

لفكرة التالية وهى أنه : « قد خلق الخيال والبداهة للانسان قبل أن يخلق العقل ، ثم جاء العقل ليتممهما ويأخذ منهما لا ليلغيهما ويصم دونهما أذنيه » . هذا مع العلم أن الخيال الذى يتحدث عنه العقاد هنا ليس الخيال المبدع الذى هو جزء من العقل ، بل الخيال الشاعرى المستند أولا وأخيرا على « العاطفة والوجدان » . وبالتالى فهناك حقائق نقبلها من العقل أذا لم يعترض عليها الوجدان والعاطفة ، وهناك حقائق وجدانية يجب قبولها رغم أنف العقل لان الخيال « والبديهة » أسبق منه ، وهو لاحق لهما متمم لهما لا غير .

وشبيه بهذا الموقف المزدوج الذى وقفه العقاد من العقل ، موقف الدكتور طه حسين . لقد ألف الدكتور طه حسين كما هو معلوم كتابه الشهير : « فى الأدب الجاهلى » سار فيه على مذهب ديكارت فى الشك. فشك فى صحة الشعر الجاهلى وفى كثير من الاخبار والروايات التي يقوم عليها جانب مهم من تراثنا العربى ، مما أثار ضجة عنيفة ... ولكن طه حسين الذى وقف هذا الموقف النقدى الشكى الجرىء سرعان ما عاد فى كتابه « على هامش السيرة » ليعتمد تلك الاخبار والروايات كوثائق تاريخية صحيحة . ولما شعر بالتناقض كتب يقول : « انى أعلم أن قوما سيضيقون ذرعا بهذا الكتاب ، لانهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون الا به ولا يطمئنون الا اليه ، وهم لذلك يضيقون بكثير من الاخبار والاحاديث التى لا يستسغيها ولا يرضاها ... وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء ، وأن للناس ملكات اخرى ليست أقل حاجة الى الغذاء والرضى من العقـــل » (3).

هذه الازدواجية فى التفكير التي طبعت أعلام الفكر العربى الحديث نجدها لدى مفكر اختار لنفســه فلسفة غربية معينة معرضا عن الميتافيزيقا والتراث جملة ، متمسكا بالعلم والروح العلمية . أنه الدكتور زكي نجيب محمود نفسه . لقد عقد هذا « الفيلسوف الوضعى » فصلا فى كتابــه « وجهة نظر » (3) ، ناقش فيه مدى امكانية تصنيف مختلف الانشطــة الفكرية فى مختلف الميادين الاجتماعية والاقتصادية والادبية والفلسفية ، مركزا على الصعوبات التي تعترض — فى نظره — تصنيف الفكر الى

(3) أنظر نماذج أخرى من هذا النوع فى كتاب الدكتور زكى نجيب محمود : وجهة نظر . القسم الأول . مكتبة الانجلو المصرية — القاهرة 1967 .

يمين ويسار لينتهى الى النتيجه التالية . وهي غنية عن كل تعليق . قال : « اتصور ان يكون الرجل اشتراكيا فى نظرته الاقتصادية والاجتماعية . فردانيا فى ادبه وفنه ، مثاليا او تجريبيا فى فلسفته ! » .

* * *

الازدواجية ، اذن ، ظاهـــرة بارزة فى الفكر العربـــى الحديث والمعاصر . نجدها واضحة فى هذا الفكر ككل ، كما نجدها بنفس الدرجة من الوضوح فى تفكير جل الكتاب والمفكرين العرب ، الادباء منهم ورجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والفلسفة : فما هى اسباب هذه الظاهرة ، وما عواملها التاريخيـــة الاجتماعية ؟ وبعبارة اخـــرى هل تعكس هذه الازدواجية فى الفكر ازدواجيه مماثلة فى الواقع الاجتماعى الذى عاشه ويعيشه العالم العربي فى العصر الحديث والفترة المعاصرة ؟

لاشك ان الجواب عن هذه الاسئلة سيكون هينا يسيرا اذا نحـــن سلكنا مسلك الذين يقيمون تناظرا ميكانيكيا بين الواقع المادى والفكـــر الاجتماعى والسياسى والفلسفى . ان هؤلاء يقولون مثلا ان الازدواجية فى الفكر تحكى الازدواجية فى الواقـــع الحضارى . ان وجـــود اكواخ قصديرية الى جانب عمارات عصرية شاهقة ، والمحراث الخشبى العتيق الى جانب آلة الحرث الميكانيكية العصرية ، واللباس التقليدى الى جانب اللباس العصرى ، والمساجد الى جانب الملاهى .. الخ كل ذلك معطيات واقعية تنعكس على الفكر لا محالة . ان هذه الطريقـــة التجريبيـــة الوضعية التى يستعملها بعض علماء سوسيولوجية المعرفة لا تقـــدم تفسيرا ولا تساعد على التغيير ، لانها تقف عند مجرد الوصف السطحى، الوصف الذى يتغير بتغير الموصوف . انها طريقة لا تنفذ الى عمق الاشياء وديناميتها الداخلية .

نعم ان الفكر بمختلف تعبيراتـــه ونشاطاته مرتبط دوما بواقـــع اجتماعـــى اقتصادى معين . نقصد بذلك اساسا العلاقات الاجتماعية السائدة . وهو فى الوقت الذى يعكس فيه هذا **الواقع ــ العلاقات** يتمتع باستقلال نسبى راجع فى جزء منه الى استمراريـــة عناصر مـــن الفكر السابق وانتشار الافكار وتلاقحها على الصعيد العالمى . ولذلك فان المثقفين لا يعبرون ضرورة عن الوضعية المادية التى يعيشونها ولا حتى

عن الطبقة التى أنتجتهم . فقد يكون المثقف يعيش فى وضعية معاصرة ولكنه يعبر بفكره عن آراء تنتمى الى وضعيات قديمة ، وقد يكون المثقف ثوريا اشتراكيا وهو من أصل اجتماعى راسمالى بورجوازى ، كما قد يكون محافظا رجعيا على الرغم من أنه ينتمى اجتماعيا الى الطبقة الكادحة .

واذا أضفنا الى ذلك خصوصية البلدان المتخلفة ، بوصفها بلداننا كانت مستعمرة وبالتالى يدخل الاستعمار كعنصر فاعل فى كيانها بمختلف مظاهره ، وان هذه البلدان تعيش فراغا فكريا وثقافيا نتيجة ظروفها الخاصة المرتبطة أساسا بالاستعمار نفسه ، مما يجعلها ميدانا تتسرب اليه بسهولة مختلف الايديولوجيات المتعارضة القديمة منها والحديثة ، ادركنا مدى خطا الربط الميكانيكى بين النشاطات الفكرية والواقع المادى فى هذه البلدان . ان المنهج التاريخى يفرض نفسه هنا اكثر من أى مكان آخر . انه المنهج القادر وحده على ابراز خيوط الترابط الجدلى بين الفكر والواقع ، بين معطيات هذا وسمات ذاك .

وعلى أساس هذا المنهج وانطلاقا منه ، ودون الدخول فى التفاصيل ، فالمقام لا يسمح بها ، يمكن أن نسجل الملاحظات التالية لما لها من دلالة فى الموضوع الذى نحن بصدده :

1 — لقد ظهرت بواكير اليقظة العربية الحديثة فى المشرق ، خاصة فى مصر وسورية الطبيعية ، منذ أوائل القرن الماضى . وذلك نتيجة تطور نسبى فى قوى الانتاج تجلى بكيفية خاصة فى نمو الحرف التقليدية وظهور بعض الصناعات الاستهلاكية الاولية واتساع مجال المبادلات التجارية ، مما أدى الى ظهور طلائع بورجوازية طرحت افكارا سياسية تناهض الحكم العثمانى الاقطاعى وتطالب بنوع من الاستقلال للولايات العربية .

حدث هذا فى وقت كانت فيه البورجوازية الاوروبية قد حققت انتصارها النهائى على الفلول المتبقية من قوى الاقطاع وتمكنت من اقامة صناعات كبرى متطورة ، فراحت تبحث عن أسواق لها خارج بلدانها . وقد أدى هذا التوسع التجارى الى نشر الفكر الليبرالى فى المناطق التى كانت لها معها صلات تجارية ، وفى مقدمتها منطقة الشرق العربى بالذات.

وهكذا وجدت الطلائع البورجوازية وشبه البورجوازية العربية فى

الايديولوجيا الليبرالية الغربية ، وبكيفية خاصة فى افكار الثورة الفرنسيه، معينا تستقى منه رؤاها الفكرية التى لم تكن قد اكتملت بعد . فرددت شعارات الثورة الفرنسية وافكار الكتاب الذين مهدوا لها . ومن هنا انطلق تيار التجديد أو تيار المعاصرة فى فكرنا العربى الحديث .

لقد اثر الفكر الليبرالى الغربى على النخبة المثقفة فى المنطقة العربية (الشرقية) قبل أن تكتمل فيها الشروط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الملائمة ، تماما مثلما أن انتصار الاشتراكية فى روسيا قد عمل بدوره على تسرب الفكر الاشتراكى الى الوطن العربى — وبو فى حدود — على الرغم من تخلف اقطاره وغياب طبقة عاملة منظمة فيه . وكان ابرز جوانب الفكر الاشتراكى التى ترددت له اصداء فى المنطقة العربية آنذاك هو ذلك المرتبط بالاشتراكيات الغربية ، والانجليزية منها خاصة ، اى ذلك الذى يمكن أن يتسرب فى اطار الايديولوجيا الليبرالية نفسها . واذا كانت الايديولوجيا الليبرالية قد اكتسحت مناطق مهمة من العالم العربى نتيجة التوسع التجارى الاقتصادى للراسمالية الغربية ، فان الاستعمار المباشر قد عمل على تركيز بعض جوانب هذه الايديولوجيا فى المدارس التى انشاها ، سواء تلك التى سميت بمدارس البعثات والارساليات او بالمدارس الحكومية الرسمية .

2 — ولكن هذا التيار الليبرالى الذى رافق النهضة العربية بفعل عوامل داخلية وخارجية المحنا اليها أعلاه ، سرعان ما اخذ فى النكوص والتراجع نتيجة التدخل الاستعمارى نفسه . هذا التدخل المباشر الذى اخذ يهدد منذ اول يوم مصالح الطبقة البوارجوازية العربية الناشئة ، مما جعل ممثليها على الصعيد الايديولوجى ينتكصون بدورهم ويبحثون لهم عن مرتكزات خارج « المعاصرة » . وهكذا كان رد الفعل هو التمسك بالخلافة العثمانية وبعث فكرة الجامعة الاسلامية لمقاومة الاحتلال الاوروبى . ومن هنا اتخذت الافكار السلفية عند رواد الفكر العربى الحديث شكل مكافحة الاستعمار بما مكنها من التغلغل والانتشار فى الاوساط الثقافية ولدى جماهير الشعب عامة .

وهكذا نرى أن النضال ضد الامبراطورية العثمانية وممثليها الاقطاعيين ، وهو النضال الذى حملت لواءه بواكير بوارجوازية وشبه

بورجوازية ، يجهض أو يعرقل فى المراحل الاولى منه ، بسبب التدخل الاستعمارى ، ليتحول الى نضال ضـــد الاستعمار وتمسك بالخلافـــة العثمانية مع مطالبة بالحكم الذاتى . ولعل مما له دلالة خاصة فى هذا الصدد ، ذلك الشعار الذى تبنته احدى الجمعيات العربية التى كانـــت تعتبر آنذاك متطرفة ، وكان الطلاب العرب قـــد أسسوها فى باريس عام 1911 ، الشعار الذى يقول : « العمل على **النهوض بالامة العربية** الى مصاف الامم الراقية **وعدم الانفصال عن الترك** » .

3 — ان التدخل الاستعمارى المباشر فى الوطن العربي قد افقـــد الامبراطورية العثمانية كثيرا من المناطق ، خاصة تلك التى توجد على الاطراف . لقد احتل الانجليز الساحل الشرقى لشبه الجزيرة العربية من عدن الى الكويت كما احتلوا مصر . واحتلت فرنسا الجزائر وتونس مما دفع الحكم العثماني الى المركزية لتقوية سلطته على الولايات العربية المتبقية لديه (اليمن ، الحجاز ، نجد ، العراق ، سورية وفلسطين) . مما كانت نتيجة قيام رد فعل عربي ضد الحكم العثمانى المركزى والتدخل الاستعمارى معا . ومن هنا أخـــذ الاتجاه السلفى ، اتجاه الجامعـــة الاسلامية يتقهقر فى المشرق ، ليقوم مكانه اتجاه قومى عربى يدعو الى الوحدة العربية بدل الوحدة الاسلامية . لقد ارتبط نشوء الفكر القومى، اذن بتطور الطليعة العربية وبنضالها ضد الاستعمار والحكم العثمانى معا ، هذا النضال الذى لم يخل من التحالف مع بعض فلول الاقطاع ومع الفئات الوسطى من المثقفين والشباب ، الشىء الذى جعل الفكر القومى، ومنذ بدايته ، يقتبس من الايديولوجيا الليبرالية الغربية ومن الايديولوجيا « الاقطاعية » القديمة ، محاولا المزج بين عناصر من هذه وعناصر من تلك باحثا عن الهوية والاصالة فى نفس الوقت الذى يجنح فيه نحـــو المعاصـــرة .

فى هذه المعطيات التاريخية التى اجملناها اجمالا كبيرا ، يجب أن نبحث عن جذور الازدواجية فى الفكر العربى الحديث : انتفاضة ضد الحكم العثمانى تقوم بها طليعة بورجوازية وشبـــه بورجوازية أخذت تتسلح بالفكر الليبرالى الغربى ، ثم نكوص وتراجع يتمثلان فى التشبث بالخلافة العثمانية لمقاومة التدخل الاستعمارى . ان التدخل الاستعمارى قد منع الطلائع البورجوازية العربية من أن تتطور الى بورجوزية حقيقية تنفـــى

جذريا النظام الاقطاعي التركي . ان هذا الردع الذى قام به الاستعمار ضد الطبقة البورجوازية الناشئة والذى يتمثل فى مضايقتها على صعيد التجارة وتخريب كيانها الصناعـــى ، باغراق الاسواق العربية بالسلع الاروبية المتطورة ، قد دفع بها الى التحالف مع « الاقطاع » والقوى شبه الاقطاعية التى تكرس الجوانب السلبية فى تراثنا ، وبذلك لم يتح لهذه البورجوازيه الناشئة ان تكتسب هوية خاصة بها ، ولا ان تنشىء لنفسها ايديولوجية واضحة متميزة ، بل بقيت افكارها الليبرالية الخجولة تعانق الفكـــر الاقطاعي القديم نتيجة التحالف المذكور ، وبالتالى اخـــذ المعبرون عنها ينحون منحى توفيقيا ازدواجيا متناقضا .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الاستعمار الذى عمل على قمع البورجوازية الناشئة فى المشرق والمغرب معا ، قد عمل هنا وهناك على غرس بنيات اقتصادية حديثة تمكنه من استغلال خيرات البلاد ، خاصة فى المواد الاولية ، مما كانت نتيجة نشوء طبقة عمالية واخرى متوسطة ذات ميول بورجوازية صغيرة ، دخلتا معا فى صراع مع الراسمالية الاستعمارية المستغلة وانخرطتا هكذا فى حلف تلقائى مع البورجوازيـــة الوطنية وحليفها الاقطاع . وهكذا ضمت الحركات الوطنية بين صفوفها خليطا من قوى مختلفة المصالح ، متباينة الاهـــداف والتطلعات ، مما انعكس اثره على الفكر القومى واطروحاته المختلفة .

* * *

تلك كانت فى خطوطها الكبرى المنعرجات التى سلكتها مسيرة التحرر الوطنى فى العالم العربى . مسيرة ملتوية ، تترادف فيها القوى القديمة والقوى الجديدة . اما العنصر الثابت فى هذا الالتواء والانعراج فهـــو الاستعمار . ان التوسع الراسمالي الغربى فى القرن التاسع عشر قد عمل على نشر الافكار الليبرالية فى المراكز الحساسة فى الوطن العربـــى (مصر وسورية) والتدخل الاستعمارى المباشر قد جعل القوى المتجاوبة مع هذه الافكار تنتكس الى الوراء وتتحالف مع الاقطاع وتتبنى جزء من ايديولوجيته مع محاولة تطويرها . ثم ان انسحاب الاستعمار المباشر قد ساعد على تفجير التناقضات الاجتماعية التى نشات او على الاقل توطدت بواسطة النشاط الاقتصادى الذى غرسه الاستعمار نفسه .

واذا اضفنا الى هذا انتصار الاشتراكية فى كثير من البلدان ، فى أوروبا وآسيا ، فهمنا كيف أمكن لبعض الاتجاهات التحررية ان تتجذر اكثر فأكثر ، وادركنا بالتالى كيف استمرت فى التواجد ، فى معظم أقطار العالم العربى ، ثلاث تيارات ايديولوجية رئيسية : التيار السلفى ، التيار الليبرالى التوفيقى ، التيار الراديكالى الذى ينحو أكثر فأكثر نحو الاشتراكية . وغير خاف أن هذه التيارات الثلاث تعبر عن قوى اجتماعية ثلاثة : القوى شبه الاقطاعية ، والقوى شبه البورجوازية ، والقوى البروليتارية والشبيهة بالبروليتارية .

ان حرصنا هذا على تكرار عبارة « القوى شبه .. » شيء ضرورى، لانه ليست هناك بعد حدود فاصلة بين هذه القوى ، سواء على صعيد الواقع الاجتماعى او الصعيد الايديولوجى ، علاوة على أن طبيعة هذه القوى تختلف اختلافا كبيرا عن طبيعة القوى المماثلة التى عرفتها اوروبا. هناك تداخل بينها جميعا ، وهناك خصوصية بارزة لابد من ادخالها فى الحساب .

واذن ، فان الازدواجية التى عرفها ويعرفها الفكر العربى الحديث والمعاصر ، انما تعكس فى الواقع ازدواجية فى الوضع التاريخى الاجتماعى العام ، كما تعكس فى نفس الوقت الدور المزدوج الذى لعبه ويلعبه التدخل الاستعمارى الامبريالى بمختلف أشكاله .

لقد ظهرت الازدواجية ، من خلال الامثلة التى افتتحنا بها هذا العرض كتوتر يهز وجدان العرب وفكرهم ويتارجح بهم ما بين ماض يحنون اليه ويفرطون فى تمجيده ، وبين حاضر يرفضونه ويلتمسون التخلص من أثقاله بتقليد الغرب والاندماج فى ثقافته وحضارته ، فى حين ان التحليل التاريخى كشف لنا عن أن هذه الازدواجية التى تقدم نفسها بشكل مزيف ، كصراع بين الاصالة والمعاصرة ، تخفي من وراءها تناقضات اجتماعية وعالمية وعوامل تاريخية معينة ، لا سبيل الى تجاوزها الا بفهمها والنضال المتواصل من أجل التحرر والانعتاق من قيود الانحطاط وأغلال الاستعمار . ان الازدواجية فى الفكر والضبابية فى الرؤية ، نتيجة من نتائج وضعية اجتماعية تاريخية معينة ، وستتضح الرؤى وتختفى الازدواجية يوم تنفجر هذه الوضعية بسبب تناقضاتها الداخلية من جهة ونضال شعوبنا من أجل التحرر سياسيا وفكريا واجتماعيا من جهة ثانية.

ان الازدواجية ، أو « التونيقية » ليست قدرا مقدورا ، ليست خاصية « طبيعية » لشعوب منطقة الشرق « الاوسط » التى تحاول « دوما » أن تأخذ من الامور « اوسطها » . انها ظاهرة تاريخية لا اقل ولا اكثر . وهى ككل الظواهر التاريخية محكومة بجملة من العوامل الموضوعية ، ولابد أن تزول يوما بزوال هذه العوامل . أن النضال ضد الاستعمار والصهيونية والتخلف ، النضال من اجـــل التحرر الكامل ، اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، سيعمل ولاشك على تقليص ظل الازدواجية فى الواقع ومحوها من الفكر والثقافة . الازدواجية مثلها مثل التخلف مرحلة تاريخية ، وليست طبيعة متاصلة ولا قدرا مقدورا .